

رسالة ابن فضال إسهام رائد ومبكر في العلوم الاجتماعية

إعداد الدكتور

عبدالله حسن العبادي

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

رسالة ابن فضلان : إسهام رائد ومبكر في العلوم الاجتماعية

١ - من هو أحمد بن فضلان؟

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، بن حماد مولى محمد بن سليمان من قادة الدولة العباسية^(١)

والمصادر التاريخية لا تزودنا بأية معلومات عن رحلته، ولا عن صاحبها. فلا توجد ترجمة واحدة له سواء في كتب الجغرافيا أو التاريخ أو الأخبار. ولا أيضاً في كتب تراجم الأعيان القديم منها والحديث. ونحن لا نعرف أين ولد ابن فضلان، وكيف كانت نشأته؟ وكيف تعلّم؟ وما المناصب الإدارية والدينية التي تقلدها قبل أن يتوجه في البعثة المرسلة من قبل الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك البلغار؟ وما صلته بالوزير حامد بن العباس^(٢). ولا نعرف أيضاً شيئاً عن ثقافته الأدبية والدينية، وهل ترك مؤلفات أخرى غير رسالته؟

لقد أعطى صورة واضحة للبلغار، وملاحظات دقيقة عن عاداتهم وتجارتهم وحضارتهم، كما ترك لنا في رسالته صورة اجتماعية وانثربولوجية عن الروس وجماعات من الأتراك. وتدل رسالته على أنه كان على ثقافة دينية وأدب رفيع، وكان أسلوبه شيقاً جميلاً، وكان ابن فضلان صادقاً فيما رواه في الرحلة. كما كان محباً للإسلام وراغباً في نشر تعاليمه. ويظهر لنا من خلال قراءة الأثر الوحيد الذي تركه، أنه كان متعلماً أما سنّه أثناء قيامه بالرحلة، فهو أنه كان شاباً أو متوسط العمر ولا يمكن أن يكون متقدماً

(١) القائد محمد بن سليمان أبو علي الكاتب، هزم آل طولون في مصر، وأعادها إلى الخلافة سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م).

(٢) هو وآخران هما الوزير أبو الحسن علي بن الفرات، وعلي بن عيسى بن الجراح، وكان الثلاثة من ألمع الوزراء في عهد الخليفة المقتدر بالله، وأكثرهم قدرة في تدبير الملك.

في السن . فقد لاحظنا أنه تحمّل كثيراً في أسفار رحلته فحاض الأنهار وسكن مناطق الثلوج وركب الجمال واستخدم السفن . وعبر كثيراً من البوادي والصحارى والقفار والغابات .

٢ - رحلة ابن فضلان :

رغم مرور أكثر من ألف سنة عن رسالته ، ورغم عدد الناقلين والتراجمة الذين تناولوا الرسالة بأكثر من اثنتي عشرة لغة ، مع ما تتضمنه تلك اللغات من تقاليد ثقافية^(٣) . إلا أن المصادر عن الرحلة في اللغة العربية ما تزال قليلة كما أن ما كتب عنها أو عن صاحبها في لغتنا أقل بكثير مما كتب باللغات الأوربية . لقد ظل ابن فضلان ورسالته مجهولين بالنسبة للجغرافيين الأوائل مثل الاصطخري والمسعودي ، رغم أنهم قرأوا رسالته منذ القرن الرابع الهجري ويبدو أنهم نقلوا عنها ، لكنهم لم يشيروا أنهم رجعوا إليها ، ثم نقل ياقوت الحموي في القرن السابع أجزاء من رسالة ابن فضلان في كتابه معجم البلدان ، ولا سيما فيما كتب ياقوت عن مادة «أتل» و «باشفرد» و «بلغار» و «خزر» و «خوارزم» . وهي المناطق التي زارها ابن فضلان وكتب ملاحظاته عنها وعن أهلها وعن عاداتهم . ثم بعد ذلك بدأ يعرف وينتشر اسمه بين المهتمين بالتاريخ والجغرافيا والرحلات .

وقد لقي ابن فضلان كغيره من العلماء العرب والمسلمين اهتماماً خاصاً من الغربيين ، وذلك لأن أجزاء من رسالته قد طبعت في الغرب وترجمت ، إلا أن هذه الطبعات لم يصل منها شيء إلى المكتبات العربية . وقد كتب عن رسالته الكثير في المصادر الروسية والألمانية ، واهتم بها عدد من المستشرقين وقبل ظهور مخطوطة الرسالة نفسها . وفي مقدمة من اهتم بها من المستشرقين « نيكيتا أيسيف » والمستشرق الإنجليزي « دنلوب » . وكتب ريتشارد فراي مع صديقه بلاك بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٣٧٤ هـ بعض التعليقات على ما أورده ابن فضلان في رسالته . أما في روسيا فقد وجدت رسالة ابن فضلان اهتماماً كبيراً لأنها

(٣) أحمد عبد السلام البقالي : مغامرات سفير عربي في اسكندنافيا منذ ١٠٠٠ عام ، مطبوعات تهامة ، جدة ، ١٩٨٨

تصف بلاد الروس والبلغار والأترك في القرن العاشر للميلاد وصفاً دقيقاً بحيث اعتبرها الروس مرجعاً أساسياً عن هذه الفترة من حياتهم ، فدرسوها دراسة وافية ونشروا أجزاء منها وترجموها^(٤) . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأ المستشرقون يهتمون بدراسة الرحلة ، والتعليق عليها مع ترجمتها فنشر بعضهم ما قاله العرب من الجغرافيين عن الروس ولا سيما الإدريسي والمسعودي وابن فضلان .

وقد لاحظ المستشرق الروسي فراين Fraehn في عام ١٢٣٩هـ ، أهمية قصة هذه الرحلة بناء على ما نقله منها الجغرافي ياقوت الحموي في معجم البلدان وخاصة ما تحتويه من أخبار البلغار في الفولجا والصقالبة فنشر حولها عدة دراسات^(٥) .

واكتشف مقطع آخر من رسالة ابن فضلان في روسيا عام ١٢٣٣هـ ونشرت بالألمانية من قبل أكاديمية « سان بيتر سبورغ » في عام ١٢٣٩هـ . ويتضمن هذا المقطع أجزاء معينة سبق أن نشرها « رازموسين » سنة ١٢٣٠هـ ، وقد اعتمد فيها على مخطوطة وجدها في كونهاجن ، ثم اختفت بعد ذلك . وهي مخطوطة يشك كثيراً في صدقها وصحتها .

وكانت هناك ترجمات سويدية وفرنسية وإنجليزية ، إلا أنها جميعها غير صحيحة إلى حد الاسفاف الظاهر فقد كانت مليئة بالأخطاء ولا تقدم معلومات جديدة .

وفي عام ١٢٩٥هـ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين في المجموعة الأثرية العائدة « للسير جون ايمرسون » السفير البريطاني في القسطنطينية ، وقد كان جامعاً شرهاً يتجاوز حماسه الاهتمام بمحتوى ما يجمعه . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف أحد متى حصل عليهما؟ ومن أين؟

إحدى هاتين المخطوطتين ، هي مخطوطة جغرافية بالعربية لأحمد الطوسي يرجع

(٤) أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الأتراك والخزر والروس والصقالبة سنة ٩٢١م ،

تحقيق الدكتور سامي الدهان - مقدمة المحقق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩ .

(٥) فؤاد سزكين ، مجموع في الجغرافيا مما ألفه ابن الفقيه وابن فضلان وأبو دلف الخزرجي ، مقدمة الناشر . منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، ألمانيا ، ١٩٨٧م .

تاريخها إلى عام ٤٤٠هـ. وهذا يجعلها أقرب زمنياً من أي مخطوط آخر، إلى أصل رسالة ابن فضلان الذي يعتقد أنها كتبت حوالي ٣٨٧ - ٣٨٩هـ. ورغم قربها الزمني فالباحثون يعتقدون أن مؤلف الطوسي أقل المصادر جدارة بالثقة، فهو ملء بالأخطاء والتناقضات الواضحة. ورغم أنه يأخذ بشكل مطول من «ابن الفقيه»^(٦) الذي زار بلاد الشمال، فإن مراجع كثيرة تتردد في قبوله.

أما المخطوطة الثانية فهي لأمين الرازي ويرجع تاريخها إلى ٩٦٦ - ٩٦٧هـ. وهي مكتوبة باللاتينية، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربي لابن فضلان. وتتضمن مخطوطة الرازي بعض المعلومات عن «الأترك والأوغوز»، كما تتضمن فقرات أخرى تتعلق بالمعارك ضد غيلان الضباب، لا توجد في المصادر الأخرى.

وفي عام ١٣٥٣هـ، اكتشف نص مكتوب بلاتينية العصور الوسطى، وجد في دير «كسيموس» قرب «تسالونيك» شمال شرق اليونان. ويتضمن نص كسيموس تعليقات إضافية عن علاقة ابن فضلان بالخليفة، وعن مغامراته مع غيلان الضباب ببلاد الشمال. ولا يعرف شيء مؤكد عن كاتب هذا النص ولا عن تاريخه. إن تجميع هذه الترجمات العديدة، وتحقيق هذا العدد الكبير من النسخ والنصوص عبر فترة تزيد عن الألف عام، والمكتوبة بالعربية واللاتينية والألمانية والفرنسية والدانمركية والسويدية والإنجليزية هو مهمة شاقة. ولا يمكن القيام بها إلا شخص واسع المعرفة، عظيم الهمة، وقد وجد مثل هذا الشخص في عام ١٣٧١هـ. فقد تولى الأستاذ «بير فراوس دولوس» أستاذ الأدب المقارن في جامعة أوسلو بالنرويج، جمع كل المصادر المعروفة، وبدأ بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة، وهي مهمة شغلته حتى وفاته عام ١٣٧٦هـ.

وقد نشرت أجزاء من ترجمته في مجلة «وقائع المتحف الوطني في أوسلو في عامي ١٣٧٩ و ١٣٨٠هـ». لكنها لم تثر كثيراً من الاهتمام في الأوساط العلمية، أو بين

(٦) هو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمداني، والذي ألف كتاب البلدان وغيره وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث والرابع الأول من القرن الرابع الهجري وقد ذكره ابن النديم في الفهرست.

العلماء، وربما كان سبب ذلك، أن المجلة المذكورة كانت محدودة الانتشار والتوزيع .
ولقد كانت ترجمة « فراوس دولوس » ترجمة حرفية، ففي مقدمته للترجمة أشار إلى
أن من طبيعة اللغات، أن لا تكون الترجمات الجميلة دائماً صحيحة، وأن الترجمة
الدقيقة تكتشف جمالها الخاص دونها مساعدة.

ويعلق « كريشن » قائلاً : لقد قمت بتعديلات طفيفة عند إعدادي لترجمة
« فراوس دولوس » فقد حذفت بعض الفقرات، وقد وضحت هذا في سياق النص .
وغيرت ترتيب الجمل بحيث يبدأ كلام كل شخص يروى عنه ابن فضلان بمقطع
جديد، حسب الحوار العصري . وحذفت العلامات المميزة للأسماء العربية . وأخيراً
أعدت ترتيب الجمل، بحيث يصبح المعنى أكثر قرباً للفهم، وأكثر وضوحاً من
الناحية اللغوية^(٧).

ومنذ ظهور مخطوطة الرسالة، توجه العلماء إلى دراستها والتعريف بها، فتولى العالم
التركي زكي وليدي طوغان تحقيقها والتعليق عليها وترجمتها، وقابلها علي ياقوت
الحموي في مقتطفاته منها والتي ذكرها في معجم البلدان، وعلى غيره . ثم أتبعها
بنصوص من الجغرافيين العرب، ونشرها بالعربية والترجمة الألمانية، وطبعها سنة
١٣٥٨هـ^(٨).

ولعل هذه أول مرة تطبع فيها الرسالة باللغة العربية، ثم قام الدكتور سامي
الدهان بتحقيق الرسالة والتعليق عليها، ونشرت في مطبوعات المجمع العلمي العربي
بدمشق سنة ١٣٧٩هـ.

ويقول البقالي : « إن ما لم يصل إليه الدهان من رسالة ابن فضلان هو أهم كثيراً،

(٧) مايكل كرنشن « Micheal Critchon » روائي أمريكي معاصر، صاغ رسالة ابن فضلان، في شكل روائي
معاصر، تحت اسم « أكلة الموتى Eaters of the dead » وحقت أرقاماً عالية في التوزيع في الولايات المتحدة
الأمريكية وأوروبا .

وترجمت من قبل روايات الهلال، العدد ٤٣٧ مايو ١٩٨٥ شعبان ١٤٠٥هـ وترجمها تيسير كامل . وما ذكر في
هاتين الصفحتين، رجعت فيه إلى مقدمة كاتب الرواية .

(٨) أحمد بن فضلان، الرسالة، مرجع سابق، ص ٤٨ .

وأعظم تشويقاً وإثارة من وجهة النظر الروائية والتاريخية والعلمية على السواء، ففيه تبدأ المغامرة الاسكندنافية الحقيقية. ولحسن الحظ أن ما نقله « كريشن » في روايته « أكلة الأموات » عن « فراوس دولوس » يبدأ حيث ينتهي ما عثر عليه الدهان، فالكاتبان يكمل بعضهما البعض .

أما ما يتقص الرسالة، فهو الجزء الأخير الذي لم يعثر عليه الدهان ولا دولوس، ويبدأ بإبحار ابن فضلان في رحلة العودة إلى الوطن بعد تسويق وماطلة من الملك « روثغار » . وتنتهي الرسالة عند مشاهدة ابن فضلان لشيء في البحر لا ندري ما هو^(٩).

٣ - بغداد في عصر ابن فضلان :

إذا كنا لا نعرف عن ابن فضلان شخصياً أي شيء . ولكن من الواضح أنه كان متعلماً مثقفاً، ومن تجاربه يبدو أنه لم يكن متقدماً في السن، وإلا لما استطاع أن يتحمل متاعب السفر ومشاق الرحلة . وهو يكتب بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض، مبيناً أنه من معارف الخليفة الذي لم يكن يحبه كثيراً .

ونحن نعرف الكثير عن المجتمع الذي عاش فيه ابن فضلان . فقد كانت بغداد، مدينة السلام، في القرن العاشر الميلادي، أزهى المدن حضارة وثقافة على وجه الأرض . وكان يعيش داخل أسوارها أكثر من مليون نسمة . وكانت مركز النشاط التجاري، والاستقطاب الفكري، والاشعاع الثقافي . وكانت بغداد مسرحاً رائعاً للجمال والأناقة والبهاء . فكانت هناك حدائق معطرة وبساتين خضراء، وغابات ظليلة باردة . وكانت غنية جداً ومليئة بالثروات الهائلة والمكدسة والتي تصل إليها من امبراطورية الدولة العباسية الشاسعة والمترامية الأطراف .

وكان عرب بغداد مسلمين، متمسكين بدينهم ومحافظين على تعاليمه، ولكنهم في نفس الوقت لم يكونوا منغلقيين على أنفسهم أو معزولين عن العالم الخارجي . ولكنهم كانوا منفتحين على شعوب أخرى، تختلف عنهم في المعتقدات، والعادات،

(٩) أحمد عبدالسلام البقالي، مرجع سابق، صفحات ١٦ - ١٧ .

والتقاليد. ويمكن القول بأن العرب في تلك الفترة كانوا أقل شعوب العالم إقليمية وانطواء، وهذا جعل منهم ملاحظين ممتازين للثقافات الأجنبية.

٤ - أسلوبه:

وواضح أن ابن فضلان ذكي ودقيق الملاحظة. فقد اهتم بتفاصيل الحياة اليومية للناس، وبمعتقدات الشعب الذي يلتقي به. وقد صدمه الكثير مما شاهد، فوصفه بأنه سوقي أو فاحش. ولكنه لا يضيع وقتاً كبيراً في التعبير عن سخطه، فما يعبر عن سخطه أو عدم رضاه، حتى يعود ثانية إلى تدوين ملاحظاته التي لا تغفل شيئاً ويحكي عما رأى وشاهد بصراحة تثير الإعجاب دون خجل.

فابن فضلان لم يكن هدفه الرئيسي التسلية، ولم يكن يهدف إلى تمجيد زعيم في محضره، أو تأكيد أساطير المجتمع الذي يعيش فيه. بل على العكس من ذلك، كان سفيراً يكتب تقريراً، فلهجته كانت لهجة جابي ضرائب، ولهجة عالم اجتماع واثربولوجي مهتم بالأصول الإنسانية، وليست لهجة ممثل مسرحي أو راوي أساطير. وفي الواقع كان غالباً ما يهمل العناصر الأكثر إثارة في روايته حتى لا يؤثر ذلك في أسلوبه الواضح المترن.

وأحياناً يكون هذا التجرد مصدر غيظ للقارئ الذي قد لا يدرك عظمة ابن فضلان كمشاهد. فقد جرت العادة بين الرحالة بعده بمئات السنين، أن يكتبوا حكايات في منتهى الغرابة، وأساطير خيالية عن عجائب ما رأوا في أسفارهم، من حيوانات ناطقة، ورجال ذوي ريش، وكائنات اسطورية كأفراس البحر ووحيد القرن.

أما ابن فضلان فإنه لا يترك العنان لخياله. فكل كلمة كتبها تشهد صدق صدقه، وحين يدون ما سمع به فإنه حريص على أن يوضح ذلك. وهو حريص أيضاً أن يحدد متى يكون شاهد عيان: ولهذا نجده يستعمل جملة « رأيت بعيني الاثنين... » أو رأيت بأم عيني مراراً وتكراراً ».

وفي النهاية فإن هذا الصدق المطلق الذي يتصف به ابن فضلان، هو الذي يجعل

روايته مرعبة بهذا الشكل . فقد قص حكايته مع أغوال الضباب ، أكلة لحوم البشر بنفس الاهتمام بالتفاصيل ، وبنفس الحذر والشك الذي يميز الأجزاء الأخرى من المخطوط .^(١٠)

٥ - أسباب الرحلة وتاريخها :

ذكر ابن فضلان أن سبب رحلته هو أن الصقالبة وهم من سكان الشمال في أوربا ، على أطراف نهر الفولجا ، وعاصمتهم على مقربة من قازان ، اليوم في خط يوازي مدينة موسكو ، فقد طلبوا عون الخلافة ومساعدتها . فقد ذكر ابن فضلان أن ملكهم « ألمش ابن يلطوار » طلب إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله^(١١) أن يرسل بعثة من قبله تفقّحه في الدين وتعرّفه شرائع الإسلام ، وتبني له مسجداً ، وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته ، وسأله إلى ذلك أن يبني له حصناً يتحصن فيه من الملوك المخالفين له . وهم ملوك الخزر من اليهود ، الذين كانوا يهاجمونه ومملكته ويفرضون الضرائب على أفرادها . وأوضح الملك أنه إنما أراد التبرك بأموال المسلمين ويعتز بدولتهم^(١٢) .

وقد استجابت الخلافة لذلك ، وأرسلت وفداً يتكون من أربعة أشخاص إلى ملك الصقالبة . « وكان السفير الذي بعث الخليفة لملك الصقالبة هو (نذير الحرمي) فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه ، وتسليم ما أهدي إليه ، والإشراف على الفقهاء والمعلمين . وسبّب « هكذا أوردت في الرسالة » له بالمال المحمول إليه ، لبناء ما ذكرناه وللجراية على الفقهاء والمعلمين ، على الضيعة المعروفة « بأرثخشمين » من أرض خوارزم من ضياع ابن الفرات^(١٣) .

(١٠) مقدمة كريستن ، أكلة الموتى ، روايات الهلال ، العدد ٤٣٧ ، ص ص ١٥ - ١٧ .

(١١) المقتدر بالله ، أبا الفضل جعفر بن الخليفة المعتضد ، بوع بالخلافة سنة ٢٩٥هـ ، وعمره ثلاث عشرة سنة . وقد قتل عام ٣٠٥هـ .

(١٢) رسالة ابن فضلان صفحات ٦٧ ، ٦٨ .

(١٣) ابن الفرات ، أبو الحسن علي بن الفرات ، من أجل الناس وأعظمهم كرمًا في زمانه ، كان وزيراً للمقتدر خلال الفتنة بينه وبين المعتز . ثم قبض عليه المقتدر ، وصادر ضياعه ، وهذه بينها .

«وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجلاً يقال له «عبدالله بن شاتو الخزري»، وكان رجلاً ثقيلاً فارغاً مهذاراً، والرسول من جهة السلطان «سوسن الرسي»، مولى نذير الحرمي و«تكين التركي» و«بارس الصقلي»، وكانا مرشديننا في الرحلة، وأنا معهم على ما ذكرت - فسلمت إليه الهدايا، له ولامرأته ولأولاده وأخوته وقواده، وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها»^(١٤).

فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع ثلاثمائة «الموافق ٢١ يونيه سنة ٩٢١م».

وغاب ابن فضلان مدة ثلاث سنوات دون أن ينجز مهمته، فقد اعترض طريقه جماعة من الاسكندنافيين أخذوه معهم قسراً، وكانت له معهم مغامرات. وعندما عاد أخيراً إلى بغداد، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمي قدمه إلى الخليفة، لكن طريق العودة إلى مدينة السلام لم تفسح الرسالة عنه، فنحن لا نعرف تاريخ العودة ولا الطريق التي سلكته البعثة في العودة.

ورسالة ابن فضلان فيها تفصيلات دقيقة عن معتقدات وعادات وحياة الناس في بلاد الروس والبلغار وبعض القبائل التركية وغيرها من المناطق البعيدة. وهي تعطينا أقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة الفايكنج في شمال أوروبا ومجتمعهم. وهي المصدر الرئيسي لتاريخ الشمال المسجل في وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة. وكتبت الرسالة بأسلوب أدبي رفيع، دقيق اللفظ وعظيم الإيجاز. ورسالته أشبه بالقصة لتماسك حلقاتها وأحداثها وهذا ما جعل الأمريكي كريتشن يحولها إلى رواية عصرية.

ولقد أظهرت الرسالة أن ابن فضلان، متدين ومتمسك بتعاليم الإسلام، وقد أفاده أدب القرآن والحديث في أسلوبه، فاقبّس منها دون تكلف. ولقد واجه الكثير من المصاعب والمشاق في رحلته هذه. فقد توجه قاصداً بلاد الروس والبلغار والخزر وهي بعيدة جداً عن بغداد. وقد ذكر أنه تنكر في القافلة قبل نيسابور خوفاً على نفسه.

(١٤) رسالة ابن فضلان صفحات ٦٧، ٦٩.

ثم دهمه الشتاء في الجرجانية على نهر جيحون وفوجئوا بتغير المناخ عليهم بشكل كبير، لم تتعود عليه البعثة القادمة من بغداد. فيقول: « فرأينا بلداً ما ظننا إلا باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه ، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة »^(١٥).

ويقول في موضع آخر: « ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء ، ولا يلقانا أحد ، في برية قفر ، بغير جبل ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ولقد لقينا من الضر والجهد ، والبرد الشديد ، وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف »^(١٦).

وإضافة إلى صعوبة المواصلات ووعورة الطرق فقد تعرضت البعثة للسلب من قطاع الطرق وكاد يذهب ابن فضلان ضحية لذلك إلا أنه وصل أخيراً إلى بلاد الصقالبة .

ثم تابع وصف رحلته في الذهاب عبر بلاد فارس بكثير من التفاصيل ، وقد وصف بعض ما شاهده في الطريق ، ذاكراً أسماء المدن التي مر بها والفترة التي بقي فيها الوفد في كل مدينة ، وعندما وصل بخارى أقام فيها ثمانية وعشرين يوماً . ثم بعد ذلك رحل إلى خوارزم فالجرجانية التي مكث فيها الوفد فترة طويلة فأقام بها أياماً من رجب وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وذكر أن سبب هذه الإقامة الطويلة كان بسبب البرد وشدته .

ولم يستمر ابن فضلان في ذكر أسماء المدن أو الأماكن التي انتقل إليها بعد ذلك في رحلته - كما كان يفعل في مقدمة الرحلة - بل كان يذكر أسماء القبائل التي نزل عندها بعد عبوره الجرجانية . فذكر قبيلة من الأتراك الرحّل يعرفون بالغزية^(١٧) وصف بعض معتقداتها وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية فيما يخص الزواج والموت والدفن وما إلى ذلك .

ثم وصف بعد ذلك البنجاك ، من الأتراك من قبائل الغز ، وهم في الأصل من تركستان الصينية وكانت مساكنهم في الفولجا بجوار الخزر وقارن بينهم وبين الغزية^(١٨) . ثم يذكر أخيراً مرورهم بالأتراك الباشفارد . ثم يذكر وصوله إلى الصقالبة

(١٥) الرسالة ، ص ٨٣ .

(١٦) الرسالة ، ص ٨٩ .

(١٧) الرسالة ، ص ٩١ .

وهي هدف الرحلة أساساً ويعطي وصفاً للعادات والمعتقدات السائدة عند السكان، ويعطي ملاحظات دقيقة عن المسكن والملابس، والتربية وبعض وسائل الضبط الاجتماعي المستخدمة لقضايا محددة. ثم يتناول الروس واصفاً الكثير من حياتهم الاجتماعية وأنماط العادات والتقاليد المنتشرة بينهم .

٦ - بعض الملامح الاجتماعية والانثربولوجية :

(أ) الناحية الاقتصادية :

يذكر لنا ابن فضلان في رسالته كثيراً من ملامح الحياة الاقتصادية في المجتمعات التي زارها. كما يصف لنا نمط المعيشة السائد، ومهنة السكان وذلك كله في أجزاء متفرقة من الرسالة .

فيقول مثلاً : رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة، ومائة ألف رأس من الغنم. وأن أغنامهم ترعى بين الثلج تبحث بأظلافها تحت الحشيش، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن. ثم يقارن بينهم وبين البنجاك وهم من الأتراك أيضاً إلا أنهم فقراء، خلاف الغزية^(١٩).

ويشير إلى أن أهم منتجات الصقالب، التفاح الأخضر، شديد الخضرة، وشديد الحموضة، تأكله الجوارى فيسمنّ عليه، وكذلك شجر البندق. ونوع آخر من الشجر يثقب ساقه وينزل منه ماء أطيب من العسل^(٢٠).

أما طعامهم فهم يعتمدون على أكل الجاورس كثيراً^(٢١) وعلى لحوم الدابة « الخيل » وتتوافر عندهم الحنطة والشعير. ويشير إلى أن الصقالب لا يستخدمون الدهون والزيت، ويستخدمون بدلاً منها زيت السمك، فكل شيء يستعملونه يكون زفراً. ويعمل الصقالب من الشعير حساء يحسوه الجوارى والغلمان، وربما طبخوا الشعير

(١٩) الرسالة، صفحات ١٠٦ و ١٠٧ .

(٢٠) الرسالة، صفحات ١٢٨ و ١٢٩ .

(٢١) الجاورس : حبّ معروف يؤكل مثل الدهن، معرب كاورس، وهو ثلاثة أصناف أجودها الأصفر وهو يشبه بالأرز ويدر البول. وذلك كما جاء في تاج العروس .

باللحم ، فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير . وفي غياض الصقالبة عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب ذلك . أما عن مخازن طعامهم فيقول ابن فضلان : إن الصقالبة ليس لهم مواضع لجمع الطعام ، ولكنهم يحفرون في الأرض آباراً ، ويجعلون الطعام فيها ، فليس يمضي عليه في البئر سوى أيام معدودة حتى يتغير ويفسد فلا ينتفع به .

ونخبرنا ابن فضلان أن الأرض مشاعة للجميع ، وأن كل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ، ليس للملك فيه حق ، غير أنهم يؤدون للملك كل سنة من كل بيت جلد سمور^(٢٢) . وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان ففتحت كان له معهم حصّة . ولا بد لكل من يتزوج أو يولم ، فللملك على قدر الوليمة وكمية من نبيذ العسل وحنطة^(٢٣) . وفيهم تجار كثير يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم ، وإلى بلد يقال له « ويسو » فيجلبون منه السمور والثعلب الأسود .

أما عن الروس فقد وصفهم ابن فضلان ، بأنهم شقر ، حمر ، لم ير أتم أبداً منهم ، وهم يهتمون بتجارة الجواري والعبيد ، حيث يحضر تجار الرقيق من أنحاء العالم المختلفة بسفنهم إلى نهر « أتل » . ويحيثون من بلدهم فيرسون سفنهم بالنهر المذكور ، وهو نهر كبير ، وبينون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب . ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر . ولكل واحد سرير يجلس عليه ، ومعه الجواري الجميلات ينتظرون قدوم التجار الراغبين في الشراء منهم^(٢٤) .

وتناول ابن فضلان العملة المتداولة في بعض المجتمعات التي زارها . فيوضح لنا بأنه رأى الدراهم ببخارى ألواناً شتى ، ومنها دراهم يقال لها « الغطريفية » وكانت معتبرة جداً في بخارى ، ومنسوبة إلى غطريف بن عطاء الذي ضربها ، وكان عامل خراسان في عهد هارون الرشيد . وهذه الدراهم مصنوعة من النحاس والصفرة وأن المئة من هذه الدراهم تعادل درهماً واحداً من الفضة^(٢٥) .

(٢٢) السمور : حيوان بري يشبه السنور ، يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وادفائها .

(٢٣) الرسالة ، صفحات ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢٤) الرسالة ، ص ٧٩ .

(٢٥) الرسالة ، صفحات ١٤٩ - ١٥١ .

وبين لنا أن الدراهم الغطريفية لا تستخدم إلا في بخارى لاختلافها عن العملة السائدة في الدولة الإسلامية في ذلك الوقت وهي الدينار. كما أن هذه الدراهم تستخدم في جميع أنواع التعامل فهي تدفع كمهور لنسائهم، وكذلك في شراء عقارهم وشراء عبيدهم وغير ذلك .

أما في خوارزم فهو يقول إنه وجد دراهم مزيفة ورصاصاً وصفراً، وكان للعملة الزائفة ثمنها المحدد جهاً وتسمى المزيفة لأن الفضة تذاب مع الزئبق، ويسمون الدرهم طازجة، ووزنه أربعة درانق ونصف، والصيرفي منهم يبيع الكعاب « دانق صغير » والدراهم^(٢٧) .

ب) وصفه لبعض عادات الزواج :

تحدث ابن فضلان عن نظام الزواج في هذه المجتمعات أو ما أطلق عليه هو رسوم التزويج^(٢٨) عند الأتراك وعند الصقالبة والروس . بين أن الزواج يبدأ بالخطوبة وهو أن يخطف الواحد منهم إلى الآخر بعض أفراد أسرته - إما ابنته أو أخته أو بعض من يكون ولي أمره، ويتم الاتفاق على المهر. وقد تناول مثل هذا النوع من الاتفاق في بخارى حيث بين أن شروطهم في مهور نسائهم : تزوج فلان ابن فلان، فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية^(٢٩) .

ثم وضح هذه النقطة عند قبيلة الغزية من الأتراك، وهم بدو رحل ولهم بيوت شعر. وقال : إن المهر عندهم يكون على كذا ثوب خوارزمي، وربما كان المهر جمالاً أو دواب غير ذلك .

وبعد دفع المهر شرطاً للدخول على العروس عند هذه القبيلة، فقد أشار ابن فضلان أن الواحد لا يصل إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه . فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم، حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه، فيأخذها بحضرة أبيها وأُمها وأخوتها، فلا يمنعونه من ذلك^(٣٠) .

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٨٢ .

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٧٩ .

(٢٧) المرجع نفسه، ص ٩٣ .

(٢٩) الرسالة، صفحات ٩٣ و ٩٤ .

ثم تحدث عن موضوع آخر خاص بالزواج عند قبائل الغزية التركية وهي قبائل غير مسلمة، لا يدينون لله بدين. ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً قائلاً: إذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه^(٣٠).

جـ) وصفه لبعض مظاهر الحياة الأسرية:

لقد وصف ابن فضلان الكثير من ملامح الحياة الأسرية في المجتمعات التي زارها ويمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي :

أولاً : عند قبائل الغزية من الأتراك، لا يستطيع أحد أن يغتسل من الجنباء إلا في الليل، حيث يتم ذلك بعيداً عن أعين الناس. بحيث لا يراه أحد. وهم يغضبون من ذلك ويقولون لمن يفعله أنه يريد أن يسحرنا ويغرمونه بعض المال لهذا السبب^(٣١).

ثانياً : ومن ملامح حياة الأسرة عند الصقالبة، أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه. وقال : « أنا أحق من أبيه في حضنه حتى يصير رجلاً »^(٣٢). كما أن الوراثة عند الصقالبة تتخذ مساراً واحداً فإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده وعلّق ابن فضلان على ذلك قائلاً : « فعرفت الملك أن هذا غير جائز، وعرفته كيف المواريث حتى فهمها »^(٣٣). وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه، ويتركونه على حالته وجميع من فيه من رجال ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان، ويقولون : هذا بيت مغضوب عليهم^(٣٤).

ثالثاً : ويصف المسكن عند الروس بقوله : إنها بيوت كبيرة مبنية من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعهم الجواري .

(٣٠) المرجع نفسه ، صفحات ٩١ و ٩٤ .

(٣١) المرجع نفسه ، ص ٩٤ .

(٣٢) المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

(٣٤) الرسالة ، ص ١٣٢ .

(٣٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .

رابعاً : كل امرأة روسية تضع على ثديها حقة^(٣٥) مشدودة إما من حديد أو فضة أو ذهب على قدر مال زوجها ومقداره . وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً . وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة ، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم ، صاغ لامرأته طوقاً ، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين ، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقاً لامرأته^(٣٦) وهذا يوضح لنا أن اللباس دائماً يعبر عن المركز الاجتماعي للابسة وليس مجرد وقاية من البرد أو الحر .

(د) بعض العادات والتقاليد الأخرى :

من ضمن العادات التي أشار إليها ابن فضلان في رسالته ، عادة إكرام الضيف . في الجرجانية حيث البرد الشديد والقارس ، فإن الرجل يدعو صاحبه إلى النار لا إلى الطعام . فإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد بره قال له : تعالى إليّ نتحدث فإن عندي ناراً طيبة . هذا إذا بالغ في بره وصلته^(٣٧) .

وهكذا نجد أن البيئة لعبت دوراً في عادة إكرام الضيف .

ومن عاداتهم أيضاً أن السائل لا يقف على الباب ، بل يدخل إلى دار الواحد منهم ، فيقعد ساعة عند ناره يصطلي - يتدفأ من البرد الشديد - ثم يقول : « بكند » يعني الخبز . فإن أعطوه شيئاً أخذ وإلا خرج^(٣٨) . وعن عادات الغزية في الذبح قال : إن الواحد منهم يضرب رأس الشاة حتى تموت لأن الترك لا يذبحون .

ومن العادات التي ضايق ابن فضلان كثيراً ، أن الرجال والنساء « من الصقالبة » كانوا ينزلون النهر ، فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض ، وقد اجتهد في منع ذلك لكنه لم يوفق .

(٣٥) الحققة ، بضم الحاء ، وعاء من الخشب ، وقد تسوى من العاج ، ذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته : « وثديا مثل حق العاج رخصا » .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

وتحدث أيضاً عن عادات المرض، فعند الغزوة مثلاً إذا مرض الرجل منهم، وكان له جوار وعبيد خدموه ولم يقربه أحد من أهل بيته. ويضربون له خيمة في ناحية من البيوت، فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ. وإن كان عبداً أو فقيراً رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه^(٣٩).

وكذلك الحال عند الروس، فإذا مرض منهم الواحد، ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه أو يكلمونه، بل لا يشاهدونه في أيام مرضه، ولا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً. فإن برئ وقام رجع إليهم « فأهل الشمال يعتقدون بأن الرجل لا بد أن يشفى بمحض قوته » وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير^(٤٠).

هـ) الدين والمعتقدات :

لم يغفل ابن فضلان أهمية الدين والمعتقدات عند الشعوب التي زارها. ويمكن أن نورد بعض ملاحظاته عن الدين وأهمية المعتقدات في حياة هؤلاء الناس في النقاط التالية :

- ١ - يقول ابن فضلان : إن قبائل الغزوة كالحمير الضالة لا يدينون له بدين ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً. فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له : « يارب ايش أعمل في كذا وكذا »^(٤١).
- ٢ - أما جماعة الباشفارد من الأتراك، فكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل، ويعلقها عليه. فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبلها وسجد لها وقال : يا رب افعل بي كذا وكذا. وإن سئل عن ذلك أجاب : « لأنني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقاً غيره »^(٤٢).
- ومن هؤلاء الجماعات من يزعم أن له اثني عشر رباً : للشتاء، وللصيف،

(٣٩) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٤٠) المرجع السابق، صفحات ١٥٤ و ١٥٥.

(٤١) المرجع السابق، ص ٩١.

(٤٢) المرجع السابق، ص ١٠٨.

وللمطر، وللريح، وللشجر، وللناس، وللدواب، وللماء، وللليل، وللنهار
وللموت، وللأرض. والرب الذي في السماء أكبرهم إلا أنه يجتمع مع هؤلاء
باتفاق، ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه. تعالى الله عما يقول الظالمون
علواً كبيراً^(٤٣).

ويواصل ابن فضلان قائلاً : ورأينا طائفة منهم تعبد الحيات، وطائفة تعبد
السمك، وطائفة تعبد الكراكي^(٤٤) فعرفوني أنهم كانوا يجاربون قوماً من
أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففرعوا وانهزموا. فعبدوا
الكراكي بعد انتصارهم لاعتقادهم بأنها هزمت أعداءهم^(٤٥).

٣ - وعن الصقالبة يحدثنا ابن فضلان، عن تمسكهم بالعقيدة الإسلامية، ونظرتهم
لأمير المؤمنين في بغداد وكلها اكبّار وتقدير لمكانته الروحية. ويذكر عن ملكهم
قوله: « فوالله إني بمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير
المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو عليّ فأهلك
بمكاني، وهو في مملكته، وبينى وبينه البلدان الشاسعة »^(٤٦).

وفي موضع آخر من الرسالة يذكر لنا حرص الصقالبة على أداء الصلاة في الوقت
الذي يقصر الليل عندهم، مما جعلهم يصلون العشاء مع المغرب، ولا ينامون
حتى لا تفوتهم صلاة الصبح لقصر الليل بشكل لا يسمح لهم بالنوم بينهما^(٤٧).
وفي صفحة ١٢٧ من الرسالة يذكر أن الصقالبة يتبركون بعواء الكلب جداً،
ويفرحون به، ويقولون : سنة خصب وبركة وسلامة^(٤٨).

٤ - وعن الروس يقول ابن فضلان : « وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج
كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيد حتى يوافي خشبة منصوبة
طويلة، لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصورة

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٤٤) طائر يشبه الوز، رمادي اللون، يأوي إلى الماء أحياناً.

(٤٥) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٤٦) المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٤٨) المرجع السابق، ص ١٢٧.

خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول لها: يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعى من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلدًا». حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: وجئت بك هذه الهدية. ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول: «أريد أن ترزقني تاجرًا معه دنائير ودراهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول» ثم ينصرف.

فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة، فإن تعذر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال: «هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه». فلا يزال يطلب إلى كل صورة ويسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع فيقول: «قد قضى ربي حاجتي واحتاج أن أكافيه». فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها. ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض. فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك. فيقول الذي فعله: «قد رضي ربي عني وأكل هديتي»^(٤٩). ويشير ابن فضلان إلى مسألة تقديم القرابين للآلهة عند قبائل الغزية من الأتراك، وذلك عند نزولهم ببيت أحد القادة العظام، وكان ابن فضلان ومن معه قدموا هدية إليه. ثم خرجت زوجة القائد ليلاً، وقد أخذت معها لحماً ولبناً وشيئاً من هديتنا، وغادرت المنزل إلى الصحراء فحفرت حفيرة، ودفنت الذي كان معها فيها، وتكلمت بكلام، فقلت للترجمان: ما تقول؟ قال: «هذه هدية للقطفان أبي أترك، أهداها له العرب»^(٥٠).

و) عادات الموت:

أشار ابن فضلان إلى طقوس الموت وبعض العادات المرتبطة به، عند الغزية،

(٤٩) المرجع السابق، صفحات ١٥٢ - ١٥٤.

(٥٠) المرجع السابق، صفحات ١٠١ و ١٠٢.

والصقالبة، والروس، والخزر، ووضح لنا معتقدات هذه المجتمعات لما بعد الموت والاهتمام بالموتى . وسوف أكتفي هنا بالإشارة إلى بعض هذه العادات :

١ - عند الغزية : « وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفرة كبيرة كهيئة البيت، وعمدوا إليه، فألبسوه قرطقه، ومنطقته، وقوسه، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذ، وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ »^(٥١). ثم جاءوا بكل ما يملك ووضعوه معه في البيت، ثم أجلسوه وسقفوا البيت عليه. وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها، فقتلوا منها مئة رأس إلى مائتي رأس إلى رأس واحد، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم والجلد والذنب، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب، وقالوا: هذه دوابه يركبها إلى الجنة .

فإن كان قتل إنساناً، وكان شجاعاً، نحتوا صوراً من خشب على عدد من قتل، وجعلوها على قبره وقالوا: « هؤلاء غلمانهم يخدمونه في الجنة »^(٥٢). وربما تغافلوا على قتل الدواب يوماً أو يومين فيحثهم شيخ من كبارهم فيقول: « رأيت فلاناً - يعني الميت - في النوم فقال لي: « هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي، وشققت رجلاي من اتباعي لهم، وقد بقيت وحدي » فعندها يعمدون إلى دوابه فيقتلونهم ويصلبونها عند قبره. فإذا كان بعد يوم أو اثنين، جاءهم ذلك الشيخ قائلاً: قد رأيت فلاناً، وقال: عرف أهلي وأصحابي أنني قد لحقت من تقدمني واسترحت من التعب »^(٥٣).

٢ - أما عادات الموت عند الصقالبة فيقول ابن فضلان، إذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلمين، ثم حملوه على عجلة تجره حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنون فيه. فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة، وجعلوه على الأرض، ثم خطوا حوله خطأً، ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره، وجعلوا له لحداً، ودفنوه، وكذلك يفعلون بموتاهم^(٥٤).

(٥١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٥٣) المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٥٤) المرجع السابق، ص ١٤٣.

وعند الصقالبة لا تبكي النساء على الميت، بل الرجال منهم يكون عليه،
يحيئون في اليوم الذي مات فيه فيقفون على باب قبره فيضجون بأقبح بكاء يكون
وأوحشه^(٥٥).

٣ - ويشير أيضاً ابن فضلان إلى عادات الموت عند الروس موضحاً أنهم يقومون
بحرق موتاهم، ويصف لنا مراسم الحرق هذه والفرق بين موت الفقير وموت
الغني الذي تدفن جاريته معه. ويذكر لنا ما شاهده من عملية الدفن
والحرق..

٤ - وعن عادات الموت عند الخزر^(٥٦) يحدثنا ابن فضلان بأن رسم الملك الأكبر إذا
مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً، ويحفر له في كل بيت منها قبر،
وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل، وتفرش فيه، وتطرح النورة فوق
ذلك، وتحت الدار نهر، والنهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر
ويقولون: «حتى لا يصل إليه الشيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام».
وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت.
ويسمى قبره الجنة. ويقولون: «قد دخل الجنة». وتفرش البيوت كلها بالديباج
المنسوج بالذهب^(٥٧).

ورسالة ابن فضلان تحتوي على موضوعات أخرى متعددة، فيها كثير من المعالجة
الاجتماعية والانثربولوجية. فقد تحدث عن الملابس التي يلبسها الرجال والنساء في
هذه الشعوب. وتطرق إلى طرق التزين عند النساء بشكل خاص.

وتحدث ابن فضلان أيضاً عن كثير من وسائل الضبط الاجتماعي التي تحافظ على
نظم المجتمع وعاداته. وذكر من هذه الوسائل ما يتعلق بالزنا أو السرقة أو القتل وغير
ذلك عند الصقالبة والغزية والأتراك من المجتمعات التي ورد ذكرها في الرسالة. ولا
يسمح المكان هنا باستعراض كل ذلك مفصلاً، ومن أراد معرفة المزيد فعليه الرجوع
إلى أصل الرسالة.

(٥٥) المرجع السابق، صفحات ١٤٣ - ١٤٤.

(٥٦) الخزر: لا يشبهون الأتراك فهو سود الشعور.

(٥٧) الرسالة، صفحات ١٧٠، ١٧١.

آراء ابن فضلان في الميزان :

سوف نجعل رأينا في الرسالة في النقاط التالية :

١ - لا شك أن من يقرأ رسالة ابن فضلان بالصورة التي وصلت إلينا « وهي غير كاملة »، يجد في كثير من موضوعاتها اسهاماً رائداً لأحد العلماء العرب والمسلمين في مجال العلوم الاجتماعية .

وإن كان ابن فضلان قد لقي اهتماماً خاصاً من قبل الغربيين، إلا أنه لقي تجاهلاً تاماً من قبل العرب والمسلمين الذين كتبوا في تطور الفكر الاجتماعي عند العرب والمسلمين . وإن كان هذا التجاهل يشمل آخرين من الرواد العرب والمسلمين والذين كانت لهم اسهامات رائدة في مجال العلوم الاجتماعية . فمعظم المؤلفات العربية الخاصة بالفكر الاجتماعي، لا تذكر إلا ابن خلدون والفارابي، علماً بأن هناك من العلماء العرب والمسلمين، ومنهم ابن فضلان، قد أسهموا دون شك في ميدان العلوم الاجتماعية بشكل عام، وفي مجالي علم الاجتماع والانثربولوجيا بشكل خاص .

٢ - استخدم ابن فضلان بعض الوسائل المتبعة في البحوث الاجتماعية والانثربولوجية بشكل خاص . ويمكن أن نذكر منها ما يلي :

أ (الملاحظة : كان ابن فضلان يتمتع بمقدرة كبيرة على قوة الملاحظة ودقتها، وكان له عقل باحث حقيقي عن المعرفة مما مكّنه أن يقدم في رسالته مجموعة من البيانات والمعلومات الهامة عن الترك والصقالبة والروس والخزر الذين شاهدتهم بنفسه . ومن ذلك قوله : رأيت من الغزيرة من يملك عشرة آلاف دابة . وهو دائماً يسأل المترجمين في معنى ما يشاهده أو يسمعه . . وفي الرسالة كثير من الوقائع التي عايشها بنفسه فهو لا يكتب إلا بعد أن يرى بعينه . ونضرب على ذلك عندما سمع بأن الروس يحرقون موتاهم، فوقف بنفسه على مراسم الحرق . .

ومما يذكر عن دقة ملاحظته ما ذكره المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكي . من أن ابن فضلان أعطى وصفاً دقيقاً لحفلة دفن زعيم روسي ، حتى لقد استطاع أحد الرسامين الروس في نهاية القرن التاسع عشر ، أن يرسم صورة حية لذلك الحفل ، اعتماداً على وصف ابن فضلان ، والرسم ما يزال موجوداً في المتحف التاريخي في موسكو^(٥٨) .

ويذكر كريتشن في روايته « أكلة الموتى » تعليقات متعددة حول دقة ابن فضلان لوصف بعض ما شاهد في الشمال ، وكيف أن عمليات التنقيب والحفريات الأثرية الحديثة أكدت تطابق مثل هذا المواقع مع وصف ابن فضلان لها أكثر من ألف عام مضت^(٥٩) .

(ب) الاستعانة بالاخباريين : لقد استعان ببعض أبناء الشعوب التي زارها ، وكانوا يقومون بتفسير بعض المظاهر والعادات والتقاليد التي لم يفهمها ابن فضلان . وهذه الاستعانة بالاخباريين واضحة للغاية في مواضع متعددة من الرسالة وقد ذكرنا بعضها فيما تقدم عن ابن فضلان ولا حاجة إلى تكرار ذلك ثانية .

(ج) إقامته بمنطقة البحث : لقد أقام ابن فضلان فترة طويلة في البلاد التي ذهب إليها في بعثة الخليفة المقتدر الرسمية . كما أن الرحلة قد استغرقت فترة تزيد على الاحدى عشر شهراً ، وقضى فترات مختلفة في المدن التي مر بها . ففي بخارى مكث ثمانية وعشرين يوماً ، وأقام بالجرجانية أربعة أشهر . كما أنه أقام فترات طويلة في بلاد الصقالبة والروس . وعلى الرغم من أنه لم يفصح عن المدة التي بقيها في هذه البلدان ، إلا أن ما قدمه من ملاحظات دقيقة ووصف رائع لنمط معيشتهم وحياتهم يدل على أنه مكث بين ظهرانهم فترة طويلة .

٣ - عند وصف ابن فضلان لقتل خيول القائد التركي ، وقد أشرنا إلى ذلك من

(٥٨) زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، بيروت ، دار البيان العربي ، بدون تاريخ ، ص

(٥٩) مايكل كريتشن ، مرجع سابق ، هوامش صفحات ٥٧ و ٦٧ .

قبل ، يعتقد « فارزان » بأن الفترة الأخيرة تكشف عن عالم انثربولوجي حديث لا يسجل عادات قوم فقط ، بل يسجل أيضاً آليات الفعل والتصرف الكامنة وراء هذه العادات . فالمعنى الاقتصادي لقتل خيل قائد بدو رحّل ، يعادل تقريباً ضريبة الموت في العصر الحديث ، والتي ترمي إلى تأخير تراكم الثروة الموروثة في يد عائلة ما ، ورغم أنها مطلوبة دينياً ، فلا بد أنها كانت مكروهة كما هو الحال معها اليوم . ويبين ابن فضلان بدقة كيف كانت تفرض تلك الضريبة على الكاره لها أو المتردد للمحافظة على بقاء التقاليد المتوارثة^(٦٠) .

٤ - تحتوي رسالة ابن فضلان على مادة وصفية تحليلية للنواحي الحضارية ، والاجتماعية ، والسياسية ، ذات قيمة عالية جداً وهي تتطرق إلى بعض القبائل البدوية التركية القاطنة في آسيا الوسطى ، وإلى عدد من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً هاماً في أوروبا الشرقية ، كالبلغار ، والروس ، والخزر . ورسالة ابن فضلان تعد دراسة واعية دقيقة مفصلة لبعض الشعوب وعاداتهم ، وهي لهذا السبب تعد مصدراً غنياً من المصادر الاجتماعية والانثربولوجية عن المناطق التي زارها . وقد أصبح من السهل على الباحثين التعرف من خلال رحلته على الأجناس البشرية التي كانت تعيش في بلاد الروس والبلغار في القرن الرابع الهجري . والوقوف على عادات هذه الشعوب وتقاليدهم ، وطقوسهم الدينية وشعائر الموت عندهم ومراسم احتفالات الزواج وغير ذلك . ولا شك أنه عول في كتابة رحلته على التحليل الدقيق والوصف الواقعي مما جعل من رسالته عملاً اجتماعياً رائداً .

(٦٠) كريشن ، مرجع سابق ، هامش صفحة ٢٦ .

فهرس المراجع

- أحمد : رمضان؟؟ .
- (الرحلة والرحالة المسلمون) ، دار البيان العربي ، جدة .
- البقالي : أحمد عبدالسلام ، ١٩٨٨م .
- (مغامرات سفير عربي في اسكندنافيا منذ ١٠٠٠ عام) ، مطبوعات تهامة ، جدة .
- حسن : زكي محمد ، ١٩٨١م .
- (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) ، دار الرائد العربي ، بيروت .
- سزكين : فؤاد وآخرون ، ١٩٨٧م .
- (مجموعة في الجغرافيا مما ألفه الفقيه ابن فضلان وأبودلف) ، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت .
- سغفان : حسن شحاته ، ١٩٦٦م .
- (تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية) ، دار النهضة العربية ، القاهرة .
- ابن فضلان : أحمد ، ١٩٨٧م .
- (رسالة ابن فضلان) ، تحقيق : سامي الدهان ، مكتبة الثقافة العالمية ، بيروت .
- القزويني : زكريا بن محمد محمود ، ١٩٨٤م .
- (آثار البلاد وأخبار العباد) ، دار بيروت ، بيروت .
- كرايتون : مايكل ، ١٩٨٥م .
- (أكلة الموتى) ، ترجمة : تيسير كامل ، روايات الهلال العدد ٤٣٧ ، القاهرة .